مناقشات

الطلبة العرب والمجتمع العربي

بقلم : نبيل مهايني

لا أدري ما هو الشعور الذي يتولد عند قارىء لبحث الاستاذ بسام طيبي ، عن مشكلات الطلبة العرب في المانيا الغربية ، بعيد عن هذه القضايا وعن جوها ؟ لقد قرأت المقال باهتمام ، ومنذ الوهلة الاولى كان يتملكني شعور مزدوج .. شيء أشبه بالحدس منه بالرأي الكامل الواضح .. ولكن عند معاودتي القراءة كان هذا الشعور يتخذ طريقه أو طريقيه الواضحين : سلامة المنطلقات وحسن النية وطيب الارادة التي انطلق منها الاستاذ الطيبي ، من ناحية ، ورداءة التطوير والبحث بشكل عام ، من ناحية أخرى .

والشيء الذي اعتمده الباحث سببا لصحة البحث « رغم الطبيعة الفجة والتبسيطية » (١) ـ والتي هي هنا بسيطة وليست تبسيطية ـ وأعني به الارتكاز « على مراقبة شخصية دامت سنوات عديدة » (٢) ، انما هو بالاحرى سبب رداءة البحث ، ليس من حيث هو منطلق ـ أكرر ـ وانما من حيث هو تطوير . فبحث أراد له صاحبه أن يكون على مستوى معين من « البحث العلمي » و « الالتزام » لا يمكنه أن يكون بهذا الشكل ، حتى لو أن بعض الاسباب التي تمنع كمال البحث ـ والتي أوردها الاخ الطيبي ـ صحيحة ، وبعضها الآخر غير صحيح . فمن الصحيح أن « الابحاث التجريبية حول وضع الطلبة العرب في ألمانيا » معدومة ، ولكن من غير الصحيح انعدام «الاحصائيات الضرورية » ، فقد كان يكفي اللجوء الى وزارات المعارف أو الى الملحقيات الثقافية .. وبشيء كثير من الالحاح كان بالامكان الحصول على مثل تلك الاحصائيات .

١ ـ وهناك نواح ايجابية وصحيحة في البحث ـ وأهمها طرحه في حد ذاته ، بشكل أو بآخر ـ وسأقتصر هنا على ايراد بعض ملاحظاتي ، التي رأيتها ، حول البحث من حيث هو أسلوب في البحث ومن حيث هو محتوى ومن حيث هو فكرة :

أ ـ وكثير من النواحي السلبية لا تقتصر على بحث الاخ الطيبي وانما تتعداه الى بعض من طرق تفكيرنا المعاصرة ، ألا وهي التفكير بالجمل الجاهزة والتعابير العامة ، بحيث ينقلب الكثير من جوانب البحث الى نوع من الحدائق الاصطناعية التي تلصق فوق ترابها ـ أو رملها ! ـ مربعات الزرع الاخضر . وهكذا أصبحت بعض مقاطع البحث ـ هنا ـ عسيرة بل مستحيلة الفهم اذا ما تجاوزنا ظاهرية فهمنا المعتادة لتعابيرها . وقد كنت أود ايراد الامثلة واحدا اثر الآخر، لكن رأيت ان مقالي هذا سيطول ، ولذلك سأكتفي بمثال واحد : يقول الاخ الطيبي : « فرغم عدم تحرر المرأة في أوروبا كليا ، فان وضعها لا يمكن مقارنته مع وضع المرأة العربية المكبلة بالاغلال » . فلا أدري ماذا يقصد بعدم تحرر المرأة في أوروبا كليا ، وماذا يعني بتحرر المرأة وبكليا ؟ ثم ما هو وضع المرأة العربية المكبلة بالاغلال ؟ طبعا ، انفهما شكليا يمكن أن تقوم له قائمة هنا ، ولكن ربط البحث ببعضه والاسباب بالنتائج ـ في مقاله ـ يبين مدى تجزئة فهم الاحداث والظواهر الاجتماعية ، وكيفية التعبير عن ذلك الفهم بتعابير مفروضة (٣) .

ب ـ ومن الطبيعي أن تجر طريقة مماثلة في التفكير الى نوع من ـ اذا جازت التسمية ـ (العرض ـ من خلال لـ) البعيد عن (العرض) التسليم وهو (التحليل لـ) الموضوعي أو (التحليل ـ من خلال لـ) الايديولوجي .

ج ـ ومن الطبيعي ايضا أن تكون مظاهر طريقة مماثلة عبارة عن تطويرات لغوية لبارقة فكرية ، (ولا يمكن فهم البارقة الفكرية هنا كجذر للتفكير) والسليم هو التطوير الفكري لبارقة فكرية ، وليس جرها ونفخها وطرحها لغويا ، بحيث تمكن قراءتها دون أن يكون بالامكان فهمها أو صمودها أمام تحليل فكري .

ولا أريد تحميل الامور اكثر مما تحتمل ، ولكن مقال الاخ الطيبي كان مناسبة جيدة حركتني لابداء ملاحظات ـ ولو بشكل ملاحظات ـ كانت تعاودني دائما . ان السهولة واللفظية والفراغ والفقر ـ في نهاية الامور ـ في الافكار انما تطبع بعضا من طرق تفكيرنا وبحثنا والذي يستند ـ غالبا ـ الى آراء عابرة أكثر من استناده الى فكرة محددة مسبقا أو الى ايديولوجية ثابتة (والتي غالبا ـ حتى في حال وجودها ـ تكون متوضعة في طبقة عالية من تفكيرنا أبعد من أن ينحدر منها تفكيرنا ذاته) .

٢ ـ أ ـ انطلاقا من رأي الاخ الطيبي نفسه ، أكرر معه بأن « مشكلات الطلبة العرب في الخارج مشكلات اجتماعية لها أسسها في المجتمع العربي ـ التقليدي ؟ ـ وايديولوجيته ؟ ـ المتخلفة ... » . ان موضوع الطلبة العرب في خارج أو داخل الوطن انما هو الموضوع نفسه ، وما يختلف انما هي المواجهات التي تصادف هذا الموضوع . ودراسة وضعهم بحد ذاته شيء غير مفيد وغير مجد ، فضلا عن انه غير ممكن علميا ، لان الطلبة العرب في الخارج لا يشكلون مجتمعا معينا او كتلة معينة أو جسما معينا له علاقات واضحة محددة مع جسم أو مجتمع أو كتلة أخرى ، كما أنهم ـ على انهم طلبة عرب ـ ليس لهم مشاكل خاصة الى ذلك الحد الذي قد نتصوره . وأي دراسة من هذا النوع يمكنها أن تقام ، ولكن اما على شكل عرض وتوضيحات علمية سليمة ، واما من أجل هدف مختلف جدا وهو ـ برأيي ـ دراسة ومعرفة ذاتنا عبر اكتشافها من جديد في تفاعلها أو ـ على الاقل ـ التقائها مع الآخرين ، أي ـ وبتعبير آخر ـ رؤية أنفسنا موضوعيا ومن فوق أنفسنا : شيء من الصعب القيام به من الداخل . ولذلك فان طرح الموضوع بذلك الشكل انما هو خاطىء ،

(١ ، ٢) وكل الجمل الموضوعة بين هلالين مأخوذة عن بحث الاستاذ الطيبي عن وضع الطلبة العرب في المانيا الغربية والمنشور في زاوية ـ النشاط الثقافي في الوطن العربي ـ في العدد الثامن من مجلة « الآداب » لهذا العام .

(٣) والقضية هنا معقدة وتحتاج لبحث آخر كامل ، ولذلك سأحاول شرحها بقدر الامكان الآن : انه عندما قال « عدم تحرر المرأة في أوروبا كليا » فانه قد نقل تعبيرا شائعا عندنا وطبقه على ظاهرة اجتماعية مختلفة في المانيا دون ان يكون هناك رابط حقيقي بين القضيتين ، والرابط الذي بدا له انما هو بارقة أقحمها من أجل توضيح وتضخيم فكرة اخرى تالية وهي « المرأة العربية المكبلة بالاغلال » ، وهنا أتى فهم جزئي شكلي آخر للظواهر الاجتماعية : انه ـ دون وعي ـ نفى طرح حافظ ابراهيم ـ مثلا ـ لقضية المرأة في مجتمعنا ، والاسوأ من ذلك ان فهم « الاغلال » انما هو عبر قاسم أمين ـ مثلا ـ وليس عبر حالة اجتماعية معاصرة ومتكاملة مختلفة تمام الاختلاف .

والاخ الطيبي قد لاحظ هذا في نقاط عديدة من بحثه وقالها بصراحة رغم معاودته البحث بذات الطريقة السابقة .

ب ـ ان الطلبة ـ حتى داخل الوطن ـ ليس لهم قضايا أو مشاكل جذرية تجعلهم نوعا من طبقة جديدة . انهم فئة اجتماعية لهم احتياجات وقضايا ثانوية ، أما قضاياهم الجذرية فترتبط بذات البنية الاجتماعية .

واذا أصررنا على وجود مشاكل خاصة بالطلبة العرب في الخارج، فهي مشاكل ثانوية وذات طابع اقليمي بحت ، وأصولها توجد في وزارات المعارف العربية .. فيجب اعادة النظر بنظام البعثات والاشراف التعليمي على الطلبة الاحرار وعلى دراستهم ونوعيتها وسيرها .. الخ (٤)

ج ـ أما التقسيم الذي قام به الاخ الطيبي ، فلا أدري الى أي مدى يمكن اعتباره صحيحا . اننا اذا سرنا حسب هذا التقسيم فسنجد أنفسنا أمام نوعية مستقلة لكل طالب عربي . فلا أدري لماذا لا يمكن أن يكون الطالب الذي أتى لالمانيا الغربية لانه حصل علامات قليلة في شهادة الدراسة الثانوية هو نفسه الذي أتى لالمانيا الغربية بسبب « توفر العمل فيها » أو لان عائلته البرجوازية تريد له « سمعة جيدة » أو لانه « يحب المغامرة » . فهذا التقسيم قد يقبل على انه أسباب دافعة ، كما أورد ذلك الاخ الطيبي نفسه ، ولكن لا يمكنه أن يكون نوعا من التقسيم الى فئات مختلفة .

د ـ ان العديد منا يذهبون لمتابعة دراستهم في أوروبا وفي خاطرهم فكرة مسبقة عن وضع الطلبة العرب الفاسد هناك ، وتمضي الايام الاولى فيجدون أنفسهم في نفس الوضع الذي وصل اليه أسلافهم . وقليلون هم الذين يستطيعون ـ ولاسباب خاصة جدا ـ التغلب أو تجاوز الاسباب التي دفعت غيرهم لما دفعته . ولكن قبل أن أبدأ بتناول هذه النقطة ، يجب أن أوضح أمرا هاما ، وهو انه لا يجب علينا معالجة « قضية الجنس » من خلال طيبة آمالنا من أجل وضع أفضل للطلبة العرب في الخارج ، أو من خلال ردة فعلنا (الصوفية) على وضعهم ذاك ، ولكن من الضروري معالجة قضية الجنس على انها قضية طبيعية . ولا أدري لماذا يجب على الطالب العربي أو غيره أن (يتصوف) أو يعاني الحرمان حتى في مجتمع الكبت فيه جريمة ذاتية واجتماعية . كما لا أدري لماذا يجب حتى أن نأمل بأن يكون الطلبة العرب (كالطلاب الملائكة) ، وان كان هذا ليس مدعاة لتقبل وضعهم (الشيطاني) . و « قضية الجنس » لا تقتصر ـ طبعا ـ على الطلبة العرب وحدهم ، فهناك الكثيرون حتى من القادمين من (دول غير متأخرة) ممن ينكبون على الجنس دون غيره ، كما ان هناك العديد من الطلبة العرب من الذين يعطون الامور حقها ويعرفون كيف يتدبرون أمور حاجاتهم الروحية والجسدية ومتطلباتهم العلمية . وعلى كل فالقضية لا تحل بالبحث وهي تتعلق بوضع حضاري كامل تكمن جذوره في مجتمعنا ذاته . وبعدها لا حاجة للقول بأن « الطلبة العرب في الخارج يسيئون فهم تحرر المرأة في أوروبا كليا » وكأننا نتكلم عن اساءة فهم تحرر المرأة في الصعيد أو في أحد أحياء دمشق المحافظة . كما انه يجب التوضيح بأن « المرأة الاوروبية المتحررة » تريد مزيدا من (أساءة الفهم) ذاك ، لانه وحسب رأي الاخ الطيبي نفسه « شيء جديد يبعد الملل ، الذي يسود المجتمعات الاوروبية » . وهكذا نرى الى أي حد يوقعنا التفكير بالجمل الجاهزة في التناقض.

هـ ـ ثم وعبر عرض بدائي بريء ـ وليعذرني الاخ الطيبي على التعبير والذي أردت ايراد معناه لا مدلوله (الجاهز) ـ نقرأ « ولكن نجد فقط عددا قليلا منهم ـ الطلبة العرب ـ يتفاعلون مع الفكر الانساني الذي أتى به عصر التنوير من ليسنغ الى فولتير وهيغل وفختيه .. الخ .. » . فمسكين هذا الطالب العربي ـ وأتكلم عن الطالب المتوسط بشكل عام ـ الذي يخرج من « مجتمع متخلف منحل » ويعاني جميع الامراض النفسية والاجتماعية ، ويدرس في مدارس بحاجة « لتغيير شامل » لنظامها بسبب تخلفه ، يدخل مجتمعا مختلفا كلية عن مجتمعه ، فيه جميع الاغراءات .. الخ .. وهو أتى ليحصل شهادة ما في الهندسة أو الكيمياء .. أو .. أو .. الخ ... فما أدري ماذا عليه أن يفعل ويفعل ؟

ثم ان التفاعل مع حضارة ما لا يأتي عن طريق دراستها فقط وانما عن طريق عيشها . وأظن ان الاخ الطيبي قد وجد ـ كما وجدت أنا ـ الكثير من الغربيين الذين لا يعرفون الكثير عن فولتير وهيغل وفيخته.. الخ .. فلا أدري لماذا نطلب من هذا الطالب المتأخر المسكين الذي يدرس فرعا علميا ـ غالبا ـ أن يعرف مسرحيات موليير وأشعار غوته وأفكار كروتشه ، في الوقت الذي لا يعرف فيه ـ ولا يجب أن يعرف كثيرا ـ ابن خلدون أو ابن رشد والغزالي (٥) ؟ هذا من ناحية الدراسة ، أما من ناحية التفاعل ـ فالى جانب ما قلت ـ لا أدري كيف يمكن للطالب العربي أن يتفاعل « مع عصر التنوير » ـ يمكنه أن يعرف ، أن يدرس ، أن يلتقي ـ أو عصر النهضة ، في الوقت الذي لا يمكن فيه للطالب الاوروبي ـ أو غير الطالب ـ أن يتفاعل مع عصر مر به شعبه ذاته ؟ وعلى كل فانا متأكد بأن كلمة « التفاعل » قد وردت خطأ وعلى سبيل استعمال التعابير العامة .

و ـ وأخيرا ، أظن ان الاخوة السعوديين قد ظلموا كثيرا في مقال الاخ الطيبي ـ ولا أدري عنهم في فرانكفورت ـ ولكن أعرف انهم ليسوا كلهم ـ ولا حتى أكثرهم ـ من أولاد العائلات الملكية والاقطاعية (ثم الى أي حد قد برزت قضية الاقطاعية في السعودية ؟) وان

---

(٤) وكم منا من درسوا اختصاصات هامة في حد ذاتها ، وعندما عادوا لاوطانهم تشردوا في الشوارع أو أصبحوا موظفين اداريين.

(٥) وأتكلم عن عدم أهمية دراستها ـ من جانب طالب ليست في اختصاصه ـ وليس عن عدم ضرورة وجودها ـ كأرضية .

هذا الشهر

ثورة ((مـاو)) الثقافية

أشمل وأعمق ما كتب عن

الثورة الثقافية المعاصرة في الصين

بقلم

البرتو مورافيا

ترجمة وحيد النقاش

منشورات دار الآداب

وضعهم ليس أسوأ من وضع بقية زملائهم العرب ، رغم المغريات المتوفرة لهم ـ لاسباب في جذورها سياحية ـ أكثر من غيرهم .

ومهما يكن ، فأكرر ان المقال يحتوي على نقاط ايجابية هامة ، قد لاحظها القارىء دون شك ، كما ان سلامة النية تبدو واضحة في العرض ، وكثير من الاخطاء التي وردت انما هي نتيجة نوعية معينة من التفكير السائد في هذه الحقبة لدينا .

روما — نبيل مهايني

ملاحظات حول مقالتين

بعد أن قرأت كلمة الاستاذ محيي الدين اسماعيل (العدد الثامن، آب ١٩٦٨ من الآداب) تحت عنوان « مع العربية في عراقتها » قفز الى ذهني سؤال مباشر : « هل قرأ الاستاذ اسماعيل مقالة الاستاذ عبد الحق فاضل المنشورة في العدد السابع ، تموز ١٩٦٨ ، تحت عنوان «العرب أول الفلكيين» ؟ »

ان عنوان مقالة الاستاذ فاضل مرآة لموضوعها . فهو يقدم لنا ما لديه من حجج وأدلة لغوية متصلة بالتاريخ ، تؤكد ان العرب هم أول الفلكيين . والذي يريده بهذا هو : « ان سكان المعربة (الجزيرة العربية) قد كانوا على درجة فائقة من الاهتمام بمراقبة النجوم والعلم بحركاتها المتشابكة ومواقيتها الدورية منذ العهود الحجرية المجهولة .. قبل عهود التدوين ، وقبل اختراع الكتابة ، وقبل أن يتحضر النيليون والرافديون بآلوف السنين .. أي منذ نحو عشرة آلاف سنة أن لم نقل أكثر » .

فاذا كان الاستاذ اسماعيل قد قرأ المقالة المذكورة جميعها فلا بد وانه قد فهم ما يراد بها . لذلك ، يكون خذلانا عليه أن يعلق كاتبا : « واني أرى ، أن الالفاظ التي اعتمدها الاستاذ فاضل ليست ذات دلالة حاسمة على أسبقية اللغة العربية وحضارة العرب على اللغات والحضارات الاخرى » . فمن المعلوم أن مقالة الاستاذ فاضل لا تبحث في هذين الموضوعين أو في أحدهما .

واذا كان الاستاذ اسماعيل متأثرا بعنوان كتاب العقاد « الحضارة العربية أسبق من الحضارتين العبرية واليونانية » فان هذا لا يعطيه الحق حتى يتهم مقالة الاستاذ فاضل بأنها : « محض دراسات مترفة تثيرها أحاسيس الفرور ، لكي تكتفي بالقول أن اللغة العربية أسبق من اللغات الاخرى » .

ويرى الاستاذ اسماعيل ان الالفاظ التي قدمها الاستاذ فاضل ، ليست أدلة حاسمة في الموضوع : « فهي محض أمثلة على الالفاظ المستعارة من العربية في اللغات الاخرى » . وفي الحقيقة ان الاصول العربية التي أوردها الاستاذ حافظ ليست أمثلة على الالفاظ المستعارة من العربية فحسب ، بل انها براهين أساسية تعتمد على التاريخ منذ الهجرات الآرية والسامية من الجزيرة العربية أي منذ عشرة آلاف سنة تقريبا . وهي تؤكد أسبقية العرب في ميدان الفلك وأولويتهم .

ملاحظة أخيرة أود اضافتها هنا ، وهي ان مقالة الاستاذ فاضل تعدد في مضمونها موضوعا واحدا لا تحيد عنه . بينما لا تخرج كلمة الاستاذ اسماعيل عن كونها :

أولا ـ تعيين عناصر خاطئة لموضوع متكامل .

ثانيا ـ « طائفة من الافكار والشذرات الموزعة » لا يعيبها أبدا أن تدرج في جدول لاصول وصلات المفردات اللغوية بدلا من أن تكون امتدادا لمقالة الاستاذ عبد الحق فاضل .

الياس أسير

مذكرات مالكولم X

زعيم الزنوج المسلمين في اميركا

في نيسان ١٩٦٥ ، اغتيل مالكولم X زعيم الزنوج المسلمين في اميركا . وقد كان وسيبقى واحدا من اشجع زعماء الحركة الزنجية في اميركا واكثرهم اصالة وابعدهم شهرة . وقبل ان يقتل بعدة اشهر (وكان يتوقع ذلك) املى على الصحفي «الكس هالاي» سيرته الذاتية التي هي اعجب سيرة لزعيم !

ذلك ان مالكولم لا يخفي في سيرته شيئا من اسرار حياته ، بل يتحدث بكل صدق عن شبابه في الكوخ الذي كان يعيش فيه في حي « هارلم » حيث كان يتعاطى المخدرات والخمر ويمارس السرقة والسلب ويعيش عيشة الانحلال . وفي السجن الذي قادته اليه اعماله اللصوصية ، اكتشف فجاة السقوط الذي يعيش فيه ويعيش فيه كذلك كل افراد شعبه الزنوج . وهناك اعتنق الاسلام وانضم الى « امة الاسلام » ليكرس حياته كلها فيما بعد لمقاومة «الشيطان الابيض» المسؤول عن سقوط الزنوج في اميركا .

ويتحدث مالكولم X في مذكراته الرائعة عن حياة السود ومشاكلهم والتمييز العنصري الذي يمارسه عليهم البيض من الاميركيين ، وعن تمردهم وثورتهم التي نشاهد اليوم بعض مظاهرها في عدد من مدن اميركا الكبرى ، ويحلل في نفاذ وعمق الظروف السياسية والنفسية التي يعيش فيها الزنوج الاميركيون ، وعن ايمانه بالاسلام كدين يحارب التمييز ويدعو الى الاخوة الحقيقية بين الشعوب والامم .

وقد وصف روبرت كندي هذا الزعيم بانه الوحيد بين زعماء الزنوج الاميركيين الذي يملك « مغنطيسية » عجيبة !

مذكرات رائعة مؤثرة عن حياة مضطربة عجيبة لرجل عبقري يعتبر شاهدا على فترة خطيرة من تاريخ الزنوج الاميركيين الذين يكافحون من اجل تحريرهم، ويقفون بصلابة في وجه سياسة اميركا المخادعة .

صدر حديثا ـ الثمن ٥٥٠ ق.ل